**القرآن الكريم في الدراسات الغربية المنصفة**

**سعيد عبيدي**

**باحث في حوار الحضارات ومقارنة الأديان**

**لقد كانت معرفة الغربيين بالقرآن الكريم في بداية الأمر على يد الرهبان، عندما أعلنوا الحرب على الإسلام بحجة الدفاع عن المسيحية؛ لذلك سعى أغلبهم إلى النيل من التنزيل الحكيم حتى يضمنوا انحسار الإسلام وتراجعه، ولما استعصى عليهم الأمر أوكلوا هذه المهمة إلى بعض الدارسين والمستشرقين الذين راحوا يحرفون معانيه وينسبون إليه ما ليس منه، حتى إذا راجت عملتهم المزورة، طالبوا المسلمين بالتخلي عن تعاليم الإسلام الواردة في القرآن الكريم إن هم أرادوا اللحاق بالركب الحضاري. ورغم الأدلة الدامغة والحقائق العلمية التي تظهر من حين لآخر، فإن المواقف الغربية الأكثر تطرفا هي الأكثر رواجا اليوم في ديار الغرب؛ إذ يقدم الدارسون القرآن الكريم ورسالته بشكل مقزز مثير للاشمئزاز، ويشن عليه الحاقدون حربا مغرضة، سواء في الإعلام أو في الكتب الموجهة للاستهلاك المحلي، لكن حتى نكون أكثر موضوعية يجب أن نشير إلى أنه ظهر إلى جانب هذه الدراسات المغرضة للقرآن الكريم دراسات منصفة تحدثت عنه بصدق ونزاهة وحياد، مبينة مزاياه ومعجزاته، بل أكثر من ذلك هناك من الدارسين من كان القرآن الكريم سببا في اهتدائه إلى الإسلام. ومن هذا المنطلق ارتأيت في هذه الدراسة أن أسرد شهادات هؤلاء الغربيين المنصفين، الذين لم يعمهم الحقد والتعصب الديني عن الجهر بالحق، وقول كلمات سطرها التاريخ بماء من ذهب في كتبهم وتراثهم.**

**<  واشنطون إيرفنج (1783-1859م)**

**هو مستشرق أميركي، أولى اهتماما كبيرا لتاريخ المسلمين في الأندلس، له مجموعة كبيرة من الأعمال التي لم يخف فيها إعجابه بالقرآن الكريم، يقول في أحدها: «كانت التوراة في يوم ما هي مرشد وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح عليه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما؛ فقد كان القرآن أكثر شمولا وتفصيلا من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين؛ إذ إنه خاتم الكتب السماوية» (1).**

**< مارسيل بوازار**

**مفكر فرنسي، خصص حياته لدراسة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، له العديد من الأبحاث، من أهمها كتاب «إنسانية الإسلام» الذي يعد علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، يقول فيه بخصوص القرآن الكريم: «لابد عند تعريف النص القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين: الأول أنه كتاب منزل غير مخلوق، والثاني أنه كلام حي في قلب الجماعة، وهو بين الله والإنسانية بمنزلة الوسيط الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي آخر غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعا أساسيا، وما زال حتى أيامنا هذه نموذجا رفيعا للأدب العربي تستحيل محاكاته، إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل فحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي» (2). ويقول أيضا: «الروح القرآنية تخلق مناخ عيش ينتهي به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر ما تفرضه التصريفات السياسية والطوابع الأيديولوجية التي تسند إلى الدول، ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في الذهنية الإسلامية المعاصرة، فهو لا يزال مصدر الإلهام الفردي والجماعي الرئيسي، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير، فالأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث» (3).**

**< هنري وليام (1856-1932م)**

**هو مستشرق بريطاني، اعتنق الإسلام في سن الحادية والثلاثين، وأطلق على نفسه اسم عبدالله، ليبدأ منذ ذلك الوقت مشوارا طويلا من الفخر والاعتزاز بدينه الجديد، ونشر الدعوة في بريطانيا بلده الأصلي. يقول معتزا بالقرآن الكريم: «هذا القرآن كتاب حكيم، فمن أجال الطرف فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز، رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمئة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر، إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع، ومع إيجازه مفيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يرى مطابقا للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوبا، كذلك يرى موافقا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه، وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت البلغاء، وحيرت فصحاء الأولين والآخرين، وإذا نظرنا إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة، فسنجده جامعا لجميع ما يحتاج إليه البشر في حياتهم وكمالهم وتهذيب أخلاقهم، وكذا نراه ناهيا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق، وكما فيه ما عدا ذلك أيضا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلا عن القول. إن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية، فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقيا بلا تقليد ودون مثيل، أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية» (4).**

**< ديبورا بوتر**

**هي باحثة ومفكرة أميركية، ولدت عام 1945م، اعتنقت الإسلام سنة 1980م، بعد أن اقتنعت بأن ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان، ذكرا كان أو أنثى. تقول عن القرآن الكريم: «عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وإنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالا للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة» (5).**

**وتضيف مؤكدة أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى: «كيف استطاع محمد  " صلى الله عليه وسلم"  الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل» (6).**

**< اتيين دينيه (1861-1929م)**

**هو مستشرق فرنسي انتهى به المقام في الجزائر حيث أعلن إسلامه، له مجموعة من المؤلفات التي دافع فيها عن الدين الإسلامي، من بينها كتاب**

**قرآن**

**«محمد في السيرة النبوية» وكتاب «الحج إلى بيت الله الحرام» وكتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام»، يقول متحدثا عن آيات القرآن الكريم ومعجزاته: «إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمدا كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية بالمعجزة الخالدة، وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله. وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون؛ لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلا عن أنها غير دقيقة» (7).**

**ويقول أيضا منبهرا بجمال القرآن وبلاغة أسلوبه: «إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه يحدث مثل هذا التأثير في نفوس علماء لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فما مفعوله في عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟ لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمروا فيه، أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد  " صلى الله عليه وسلم"  ذلك الأمي الذي لم ينل حظا من المعرفة؟ كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات» (8).**

**< موريس بوكاي (1920-1998م)**

**هو طبيب وجراح فرنسي، تحدث عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بانبهار كبير، كيف لا وهو الشخص الذي قادته أبحاثه العلمية التي أجراها على مومياء فرعون إلى الإسلام، يقول في كتابه القيم «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» مبينا عظمة القرآن الكريم وتطابق آياته مع الحقائق العلمية: «لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أي مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبالموضوعية نفسها قمت بالفحص نفسه على العهد القديم والأناجيل؛ أما بالنسبة إلى العهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا، وأما بالنسبة إلى الأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة، ونعني بها شجرة أنساب المسيح، وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وإن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لا يتفق مع المعارف الحديثة بقدم الإنسان على الأرض» (9).**

**< غوستاف لوبون (1841-1931م)**

**هو طبيب ومفكر فرنسي لم يخف إعجابه بالإسلام وكتابه القرآن الكريم، يقول متحدثا عن الأخلاق الواردة في آياته: «إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوا عما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى عليه السلام. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه؛ فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدا، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق، وهو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة» (10).**

**< ول وايريل ديورانت (1885-1981م)**

**هو فيلسوف ومؤرخ وكاتب أميركي، من أشهر مؤلفاته كتاب «قصة الحضارة» الذي تحدث فيه عن مختلف الحضارات، وفي هذا الكتاب استهوته الحضارة الإسلامية بكل ما فيها، كما لم يخف فيه إعجابه بالقرآن الكريم وتعاليمه، يقول بخصوص ذلك: «والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة، وقد كتبوا المصاحف وزينوها وبذلوا في ذلك كل ما يستطيعون من عناية، مدفوعين إليها بحبهم له، وهو الكتاب الذي يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة، وهو المحور الذي يدور عليه تعليمهم والذروة التي ينتهي بها هذا التعليم، وقد ظل أربعة عشر قرنا من الزمان محفوظا في ذاكرتهم، يستثير خيالهم ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضا، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أي بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض، ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة، ويتحملوا قيودها، بلا شكوى ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعا كان أعجب ما شهده التاريخ، وقد عرف الدين وحدده تحديدا لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله» (11).**

**< مونتغمري وات (1909-2006م)**

**هو مستشرق بريطاني، عمل أستاذا للغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي بجامعة أدنبرة، تخصص في دراسة علم الكلام الإسلامي، له مجموعة كبيرة من المؤلفات والدراسات لم يخف فيها إعجابه بالحضارة الإسلامية، لاسيما ما تعلق بدستور الأمة؛ يقول: «يعتبر القرآن مزيلا لقلاقل العصر نتيجة أسباب دينية، على الرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، التي لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء، وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن؛ نظرا لنجاح محمد في تبليغ الرسالة التي أمره الله بتبليغها. يجب علينا في رأيي، مهما كان موقفنا الديني، أن نعتبر رسالة القرآن انبثاقا خلاقا في الوضع المكي. ولاشك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحل، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأزمات إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي، ولاشك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلها جميعا دفعة واحدة وليس بصورة بديهية، ولربما قال مؤرخ دنيوي إن محمدا وقع صدفة على أفكار كانت بمنزلة المفتاح لحل المشاكل الأساسية في زمان، ليس هذا ممكنا، ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفند لنا كما يجب رسالة القرآن» (12).**

**< روم لاندو (1899-1974م)**

**هو مستشرق ومفكر بريطاني، قادته أبحاثه العلمية التي أجراها على الإسلام إلى اعتناق الدين الحق، أعجب كثيرا بشخصية الرسول  " صلى الله عليه وسلم" ، كما أعجب بالقرآن الكريم، يقول في أحد مؤلفاته: «إن بين آيات قصار السور ترابطا باهرا له تأثيره الوجداني، على الرغم من أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق إن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيرا ما يخلف في نفس المرء تأثيرا بليغا، لقد أريد بالقرآن أن يتلى بصوت جهير، ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلا لكي يحكم عليه حكما عادلا ويقدره حق قدره، وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزا لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شيء من مثله» (13).**

**خاتمة**

**لقد تناول الغربيون القرآن الكريم بالدراسة والبحث والتحليل، فلقد كان منذ نزوله، وإلى وقتنا الحاضر، كتابا مقلقا لهم ومحيرا ومبلبلا لأفكارهم، وتاريخ تعاملهم معه حافل بالمتناقضات؛ فمنهم من تناوله بحقد وكراهية، بحيث أعماه التعصب عن قول الحق، ومنهم من تناوله بموضوعية وحياد، ولربما قاده موقفه هذا إلى اعتناق الإسلام، وبين هذا وذاك تبقى الحاجة ماسة إلى تسليط الأضواء على أمثال هؤلاء الغربيين الذين صدحوا بشهادات منصفة، من شأنها أن تعدل من الصور الذهنية النمطية، وتقيم جسور التعارف والتعايش والتعاون.**